الفصل الثامن

مع اللغة في تطورها

اللغة ككائن حى ، تتحرك وتموج وتضطرب ، وتحيا وتستخدم وتتغير وتموت ، كشأن الأحياء .

ولا يمكن أن تثبت اللغة ثبوت الدين فى دائرة الخلود ، بل لابد من تغيرها وتطورها .

ومعرفة حياة اللغة وتقلباتها ، وتأثرها وأثرها ، وتماسكها أو تلاشيها ... كانت من البحوث القيمة ، التى أولاها (علماء اللغة) عناية كبيرة ، فى مجالات :

● علم الاجتماع اللغوى (Sociology of Language) ، لبيان العلاقات التى تربط بين اللغة ومجتمعها ، وأثره فى مختلف المظاهر اللغوية ، من حيث تركيبه وحضارته وبيئته .

وكان التعاون بين علماء اللغات والاجتماع مفيد لكليهما :

اذ استفاد الأولون من دراسة الألفاظ ودلالتها — على نحو دقيق — فى واقع الاطار الحضارى والاجتماعى ، وتفسير التغير اللغوى تفسيرا كاملا فى ضوء الظروف السابقة .

واستفاد الآخرون : أن اللغة من أهم مظاهر السلوك الاجتماعى ، وسبب لانتماء الفرد لمجتمعه .

● كما عظمت العناية ببحوث (علم النفس اللغوى Linguistic psyology) لبيان العلاقة بين اللغة ، والحالة النفسية ، والتفكير والايحاء ، والتداعى ، والسلوك .

● وكذلك بحوث : علم الدلالة (السيمنتيك Semantique) ، وخاصة علمى : البنية : الاشتقاق والتصريف (المورفولوجيا) ، والتنظيم ، فى أقسام الكلام وأنواعها ، ووظائفها فى التركيب ، فى المسارين : التاريخى والمقارن .

● وكذلك علم الأساليب : (الستيليستيك Stylistique) ، الذى ينوع فنون القول باختلاف العصور عند الشعوب ، فى اطارى المقارنة والتاريخ ايضا .

أما الجانب التعليمى فى كل ما سلف فقد استقل بنفسه ، وأصبح علما مستقلا ، وكثير من علماء اللغة ، لا يعدونه من ابحاث علم اللغة اليوم .

وقد احتاجت اللغة فى دراسة جوانبها الى تكاتف وتعاون هؤلاء العلماء ، حتى يتم توضيحها والكشف عنها فى قطبيها : من ناحية الأصوات ، والمعانى ، اذ هما المظهران الرئيسيان لها :

من ناحية الشكل والصورة ، فى الأصوات وأجهزة النطق ، التى تحتاج لعلوم : الطبيعة ، والفيزيولوجيا ، والتشريح ، والانثروبولوجيا .

ومن ناحية المخبر ، وهى المعانى التى تؤدى اليها الأصوات ، ولما كانت المعانى يتم بها تنظيم علاقات التفاهم ، والتعبير عن الحاجات والمشاعر والأحاسيس احتاجت فى دراستها الى علوم : الاجتماع ، والنفس ، والتاريخ والبيئة الجغرافية .

* * *

اللغة فى مسارها التاريخى او الموروث :

التطور والتغير ناموس فى كل مجتمع ، والمجتمع بأسره وما يدور فيه عامل فى خلق هذا التطور . والمدلول الاجتماعى يسبق دائما المدلول اللغوى ، الذى يخلفه ليغطيه برمز لغوى . واللغة أهم ظاهرة لغوية فى المجتمع ، ، التى يتوارثها الأجيال تباعا . وكل تطور نفسى أو عقلى أو اجتماعى ، أو بيئى ، أو حضارى ... تبدو مظاهره فى اللغة ، فتلاحقه ، وتتشكل معه تطورا وتغييرا واثرا وتأثيرا . وبازدياد ملامح التغير والتطور تتسع مسافة الخلف ، حتى تتشعب اللغة الى لهجات ، وتصبح لغات — كما أسلفنا — وهكذا دواليك .

وقد شبه بعضهم اللغة بشجرة « تتدلى فروعها الى أسفل ، فتلامس التربة ، وترسل فى الارض جذورا تصبح اشجارا فتية فيما بعد . وقد تموت الشجرة الام ، ولكن من فروعها تنشأ اشجار جديدة .

واذا قلنا : ان اللغة تموت ، فانما نقصد بالموت التغيير الكلى الذى يطرأ على المجتمع ، والتبدل الجذرى فى الحياة ، وفى الظروف المحيطة بالحياة الى حد نستطيع فيه القول أن لغة اليوم مغايرة للغة الأمس .

وقد نستطيع أن نطيل حياة لغة باقامة سياج حولها من أحكام شديدة وقوانين ثابتة . وقد نقيم حولها هالة من التقديس ، وقد نضفى على أدبها مسحة من القدسية ... وجميع هذه تطيل فى حياتها ، ولكن لا مفر من المحتوم : (الموت) ، وكل حى يموت ، واللغة حية فهى خاضعة لهذا الناموس .... » (١) .

ونقول : اذا جاز ذلك الموت على كل لغة ، فان العربية وهى وعاء مقدساتنا لن تموت — باذن الله — وان نالها التطور والتغيير .

واللغة تنبع من أصل ، وتجرى فى روافد الى مصب ، وتتشعب بها المجارى والروافد ، وكلما بعدت عن نقطة الانطلاق ازداد التغاير والتباين .

وهذا التطور قوى التيار ، يجرف أمامه ما يعترضه ، ويصبغه بصبغته ، مهما نشط اللغويون بكل امكاناتهم فى ايقاف زحفه ، فقد يطيل الأجل قليلا ، أو يوقف الزحف يسيرا .. ثم تمسى اللغة متقوقعة ، أو غريبة الوجه واللسان ، أو هامدة الحركة .

ويؤيد ذلك : أن العربية وأخواتها الساميات : العربية ، والبابلية ، والأشورية ، والفينيقية والسريانية ، والحبشية ، على ما بينها من اختلاف .. كلها من انشعبت وتحدرت من مجرى واحد .

وأن اللغات : الأرمنية ، والايرانية ، والروسية ، والألمانية ، والايرلندية ، واليونانية ، والسويدية ، والدنمركية ، واللاتينية ،

---

(١) نظريات فى اللغة ص ٥٠

والانجليزية ... على ما بينها من تباين كبير فى الأصوات والنظـــام والأساليب ... تمثل مجارى متشعبة من مجرى واحد ، من الجرمانية الأم .

ولم يبق للاتينية الا رسمها ، حين استقلت عنها ــ الفرنســية ، والايطالية ، والرومانية ، والبرتغالية ، والأسبانية .

وكالعربية الفصحى التى ظلت لغة كتابة وحديث وتأليف وأدب ، بينما تجد ــ اليوم ــ لهجاتها فى البعد عنها فى عامية الأقطار العربية ، وتغذ السير فى هذا البعد ، الذى استشرى وخيفت عقباه ونتائجه ، وبات بحاجة الى تدارك وعلاج .

ومعلوم أن لكل لغة صفات أساسية مشتركة بين عدد من أصواتها ، يعرفه أبناء تلك اللغة الا ان لكل انسان صفاته المميزة فى النطق ، وطريقة تعبيره وأدائه (Idiolect) ، حتى ليمكن أن نميز صوته عن غيره ، ومن بعيد ، وعبر الأثير واللاسلكى . ويرجع هذا الاختلاف الى التكوين الفسيولوجى لكل واحد على حدة ، وبسبب تعوده والفه . كما يتلون حديثه بما ينم عن شخصيته ومهنته وطبقته فى الحياة . والفروق الفردية فى النطق لا تخفى الأصوات اللغوية للمجموعة ، والتى تحميها الصفات الأساسية التى يشترك الجميع فى معرفتها والسير عليها . وتحديد هذه الصـــفات الأساسية لأصوات لغة ما كان هو السبب الداعى لنشوء نظرية (الفونيم) فى الدراسات اللغوية ، وعنها تفرعت (الفونولوجيا) .

وهذه الفروق الفردية بين الأفراد فى نطق الأصوات : حتمية ، لا يمكن ايقابها ، لأنها جبرية ، وكل انسان وطبيعة تكوينه ، وما تلونه عوامل البيئة .

كما أنها قديمة : فقد وصف سيبويه ــ فى القرن الثانى الهجرى ــ الضاد التى سمعها بأنها : الضاد الضعيفة ، اى ليست هى الضاد التى ينطقها الأعرابى الأصيل (١) . وقد قلبت هذه الضاد الى ما يقرب من الدال ــ اليوم ــ فى بعض اللهجات ، والى ظاء فى لهجات أخرى ، كما يشاهد فى العرق .

● والتغيير يشمل المفردات فى معانيها ، كما يشمل التراكيب ، وكما شمل الحروف : فاذا تتبعنا لفظ (جمع) وبعض مشتقاته فى العربية ــ مثلا ــ لوجدناها تطورت حضاريا كما يلى :

---

(١) الكتاب لسيبويه ٤٠٦/٢

القواميس القديمة عرفت (جمع) بمعنى الضم والجمع والاجتماع للناس والأشياء ، والأمر الجامع . وعرفت : الصلاة الجامعة . وصلاة الجماعة ، وما عرفت الجمعية ، حتى القرن الثانى الهجرى .

ولكننا لو راجعنا معجم (دوزى) فى عصر الحضارة ، وراجعنا ـ أيضا : (كشاف اصطلاحات الفنون ، للتهانوى) (١) لوجدنا تشعب الاصطلاحات وكثرة الاستعمالات :

فالجمع : حسابى عند الرياضيين ، وهو ضم الأصل والفرع لعلة مشتركة ، ليصح القياس عند الأصوليين . وعكس المفرد عند النحويين .

والجامعة اليوم : تيار سياسى ، واكاديمى ، وشعبى فى الجامعة الشعبية .

وأهل السنة والجماعة ، وجماعة المسلمين ، للصف الاسلامى الموحد .

والجمعية العمومية ، والتعاونية . والاجتماع للقاء ، واجتماع المنجمين ، والاجتماع عند علماء الاجتماع ، واجماع الفقهاء ، وعلماء الكلام ، والنحاة (٢) .

ويقول المقرى : انجمعت على القلوب ، والقواميس لم تعرف (انجمع) . وجاء عن الادريسى (مجمع) ، وعندنا اليوم المجمع السنوى ، والمجمع اللغوى ، ومجمع البحوث ، ونكنى عن الزوجة بالجماعة ...

وقد كان تتابع الاضافات معيبا فى التراكيب ، كقول الشاعر :

* حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى *

فأصبح مألوفا فى تراكيب جديدة مثل : احتمال قرب سقوط مطر الشتاء .

* * *

---

(١) علم اللغة العربية ـ د . محمود حجازى ص ٢٩٩ وما بعدها .
(٢) كشاف التهانوى ٣٣/١

الاحتكاك اللغوى فى مجال التغيير :

الانسان مدنى بطبعة ، والاتصال ضرورى بين الأمم ، وقد كثر نتيجة لتذليل سبل الاتصال والاحتكاك اللغوى عندئذ لابد منه ، والتأثر والتأثير اللغوى نتيجة هذا الاحتكاك ، ومصير التأثير التطور والتغيير لاشك فى ذلك .

وسنة اللغات فى الاحتكاك الأخذ والعطاء ، والأعلى كعبا من اللغات هى التى تقرض أكثر مما تقترض .

والبلد المتفوق فى ناحية من نواحى الحياة أو الثقافة يعطى هذا الجانب ومع ألفاظه الى الذى افتقد هذا الشىء :

فقد أخذت اللاتينية عن الاغريقية ، مع حضارتها الشىء الكثير من الألفاظ ، وخاصة الطبية والفلسفية .

واخذت الجرمانية عن اللاتينية مفردات عديدة فى : التشريع ، والقضاء ، ونظم السياسة والاجتماع (١) .

واخذت الأوروبيات عن العربية كثيرا من الفاظ منتجات الزراعة ، مثل : الليمون ، والزعفران ، والسكر ، والكافور ، والقهوة ، والقطن ، والنسيج الموصلى ، والدمشقى . وهى على الترتيب :

Lemon, Saffran, Sugar, Camphor, Coffee, Cotton, Muslin, Damask

واخذت الأسبانية عن العربية حوالى أربعمائة لفظة ، فى شئون الملاحة والبحرية ، وكذلك صنع اليونان كالأسبان .

وكلمة (شاى) وفدت من ماليزيا ، وعمت أرجاء المعمورة (Tea)

واخذت العربية من اليونان : الفاظ الطب ، والفلسفة ، والمنطق ، وعلوم الطبيعة ، وكذلك الفردوس ، والقسطاس ، والبطاقة ، والسجنجل (للمرآة) ...

واخذت العربية عن الفارسية : أسماء التوابل ، والأدوات المنزلية ، مثل : الفلفل ، والقرفة ، والزنجبيل ، والدارصينى . والكوز ، والابريق ، والطست ، والخوان . ومن الطور : البنفسج ، والمسك ، والياسمين ، والكافور ، والعنبر . ومن النسيج : الديباج ، والسندس ، والاستبرق (٢) .

---

(١) علم اللغة . د . وافى ص ٢٣٢

(٢) فقه اللغة للثعالبى ، الباب ٢٩ ، والمزهر للسيوطى ، النوع ١٩ .

وأثبتت العربية بما أخذته وعربته من اللغات الأخرى : أنها ذات قدرة بارعة على هضم الألفاظ الأجنبية ، وصقلها على أوزانها فيها ، وجعلها مثل الألفاظ الأصلية فيها ، حتى صرفتها واشتقت منها ، فقالت : فلسفة ، وتفلسف ، ومتفلسف . ونورز من النيروز .

* * *

اللغة والحضارة :

تعيش اللغة فى تفاعل دائم مع طبيعة العلاقات الاجتماعية ، والحضارية ، والسياسية ، وكل ما فى المجتمع عبر الأجيال ، لأن اللغة من الحياة الانسانية ولها ، والعنصر الانسانى هو الذى يضفى على اللغة مسحة من تأثير السحر والكمال والجمال . فهى أكثر من (فونيمات) وحياتها أو موتها أو تبدلها رهن بالعنصر الانسانى اذا عاش عاشت معه ، وان مات توارت معه ، سواء أكان موته حقيقيا أو معنويا .

واللغة أصدق سجل لتاريخ الأمة ، وميزان منزلتها من الحضارة ، وتعكس ما فى البيئة من مختلف الشئون الحياتية ، وتتأثر بكل ما يدور ويحدث فى البيئة موروث أو طريف . والانسان ابن بيئته : فان بدت باد وبادت معه لغته ، وان تحضرت حضر وتحضرت معه لغته : تتسع بانفتاح آفاقه وتنغلق بانعزاله :

فمن (الساميات) : « كانت (الآرامية) فى الشمال : قليلة الألفاظ ، مضطربة القواعد ، ثقيلة التراكيب ، صعبة النطق ، متنافرة الكلمات والحروف .

و (العربية) فى الجنوب : وفيرة المفردات ، رقيقة الحاشية ، انسيابية التعبير ، منطقية القواعد ، رحبة الأفق ، ووسعت كتاب الله لفظا وغاية .

وجاءت (العبرية) فى منزلة بين المنزلتين : ففاقت الأولى ، ولم تبلغ شأو الثانية » (١)

واللغة أداة بلاغ ، وحمالة حضارة ، ولكنها كما ثبت من الواقع — لا تحدد نوع الحضارة لمجتمع معين : فقد ثبت : « أن المجتمعات التى تتكلم

---

(١) علم اللغة . د . وافى ص ٢٣٥

لغات مختلفة يمكن أن تشارك فى نفس الحضارة : كالحضارة العربية الاسلامية » ، التى حاكتها امم تنتمى الى لغات شتى .

وعكس هذا صحيح ايضا : « فمن الممكن ان تستعمل مجتمعات تنتمى الى حضارات مختلفة لغة واحدة ، كما هو حاصل فى الوقت الحاضر — مثلا — للغة الانجليزية » (١) .

فاللغة انعكاس لاهتمامات المجتمع الذى يتكلمها ، وتفى — دائما — باحتياجاته واهتماماته بشكل مرض للغاية . وهى — بالتالى — تساعد الفرد والمجتمع على التفكير الى العالم بطريقة ما ، ولكنها لا تمنعه من التفكير والتصرف بطريقة او طرق اخرى .

فاذا انتقل المجتمع من حال الى حال : من الزراعة الى الصناعة ، او من البداوة الى الحضارة ، لاتقف اللغة حائلا دون ذلك التحول ، لأن فى كل لغة امكانيات للتطور والتغيير ، بحيث تساير المجتمع الجديد فى كل ما يجد فيه من شئون . تسرع او تبطىء فى ذلك على حد ما فى طياتها من امكانات اليسر او العسر فى الحركة ، ولكنها سائرة نحو الوفاء بالتعبير عما جد فى المجتمع الذى تعايشه من مدالیل وامور .

وتصطبغ اللغة بما فى البيئة ، وترى انماط السلوك السائدة ، والاتجاهات الاجتماعية ، والطبقية ، وتوحى بدرجة الثقافة :

فحين يصبح فرس امرىء القيس خير وسيلة للسفر ، يصفه امرؤالقيس بتفصيل دقيق . وحين تمسى ناقة طرفة خير ركوبة ، وعليها زاده وامله وحياته . . يمطرها بأكثر من اربعة آلاف لفظة ، لاتدع شاردة ولا واردة من شئون ناقة الا احصاها .

وحين تمحل الأرض او تخلف السماء ، لا تجد اثرا للراحلين سوى الدمن والأطلال ، وبعر الآرام فى العرصات .

وحين يحيا القوم فى عيشة راضية ، يمدح الشاعر المراة : بأنها نؤوم الضحى ، ويضحى فتيت المسك فوق فراشها ، ومشيتها من بيتها الى بيته جارتها مشى السحابة لاريث ولا عجل .

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية ص ٢٢٠

ويكون القوم الممدوحون : رقاق النعال ، وطيب حجزاتهم ، ويسوسون احلاما بعيدا اناتها ، وتخالهم جنا اذا جهلوا .

وقانون البيئة وانطباع ما فيها فى اللغة لا يتخلف ، والعنصر الانسانى ، هو الاداة والحمالة : فقد تزدهر الحضارة ، وتموج بها الدنيا من حوله ، وهو لايدرى .. لكن ما ان يتعامل مع الدنيا الجديدة وينفعل الا وتجد النقلة واسعة ، والجذوة متقدة ، اذا كانت القريحة وقادة :

تحدث اسانيد الادب : ان شاعرا وفد من البادية ، مشبعا بمشاهدها ، ويحمل بضاعتها ، مدح على بن الجهم ، فقال له :

أنتَ كالكابِ فى وفائكَ بالعهد ... وكالتَّيْسِ فى قِراعِ الخطوب

أنتَ كالدَّلْوِ لاعَدِمْنَاكَ دَلْوًا ... مِنْ كثيرِ العطا قليلِ الذَّنوب

فهم احد جلساء الأمير بتاديبه ، ولكن الأمير ادرك الامر بفطنته : فالشاعر استوحى محصوله ومخزونه اللفظى والمرئى ، فلم تسعفه الذاكرة باكثر مما عاشه واقعا فى بيئته . وابقاه الأمير زمنا يسيرا ينعم فى بحبوحة العيش ، ويتعامل مع الطبيعة فى اجلى مغانيها ومفاتنها ، ويشاهد الجوارى كالحوريات فى غدواتهن وروحاتهن .. وتحدث كتب الأدب ان ذات الشاعر راى فى روضة اريضة كالخميلة جارية تتهادى بين الشجر ، فهم بمغازلتها ، فتهددته بخنجرها ، فأمسك بيدها قائلا :

يا مَنْ حَوَى وردَ الرياض بخدِّهِ ... وحكى قضيبَ الخَيْزَرَان بقَدِّه

دعْ عنك ذا السيفَ الذى جرَّدتَهُ ... عيناك أمْضَى مِنْ مضاربِ حده

كلُّ السيوفِ قواطعٌ إنْ جُرِّدَتْ ... وحسامُ لحظك قاتلٌ فى غمده

إن رمتَ تقتلنى فأنتَ مخيَّرٌ ... مَنْ ذا يُعارِضُ سَيِّدًا فى عَبْدِه

وذات الشاعر هو القائل ايضا :

عيونُ المَهَا بينَ الرُّصافةِ والجِسْرِ
جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أدْرِى ولا أدْرِى

وهكذا تكون النقلة ، وهكذا يكون أثر البيئة ، وهكذا تكون اللغة مطاوعا لالمعى .

وكثير من العلماء يرون ان لكل لغة مقدرتها على التعبير عما فى بيئتها ، فلا مجال لتفضيل لغة على اخرى فى اية ناحية ، وانما التفضيل لحضـــارة على اخرى ، تحملها لغة :

يقول الأستاذ انيس فريحة :

« لقد اثبت علم اللغة الحديث : ان اللغة ظاهرة اجتماعية ، يتميز بها كل مجتمع انسانى ، وهى ظاهرة انسانية ... لم تهبط من عل ، بل نشأت من اسفل ، وتطورت بتطور الانسان ذاته ، ونمت بحضارته . وليس هناك مبرر للمفاضلة بين لغة واخرى ...

لكل لغة عبقريتها ومقدرتها على التعبير عن حياة المجتمع .

وليست القضية قضية لغة افضل من لغة ، بل قضية حضارة ارقى من حضارة ، وحياة اغنى من حياة .

وكذلك لا مفاضلة فى اصوات اللغة : كأن يقول احدنا : ان فى الايطالية اصواتا اعذب موسيقى من اصوات العربية ، فالذى نعده ـــ نحن البيض ـــ عذوبة فى الصوت ، قد يعده الهندى الاحمر قبحا وخشونة . وما نحسبه بيانا وفصاحة .. قد يرى فيه الزنجى غموضا وتعقيدا .

ولا مبرر للقول بأن مفردات لغة ما اكثر عددا من مفردات لغة اخرى ، اذ قد يكون عندنا ـــ نحن البيض ـــ للصورة الذهنية لفظة خاصة تعبر عنها ، بينما نجد ان الصفر او الحمر او السود من البشر لا يشعرون بأن هذه الصورة الذهنية تحتاج الى لفظة خاصة بل قد يعبرون عنها بطريقة اخرى مخالفة ، ولكن فعالة » (١) .

ونحن لا نوافق الأستاذ فى كل ما ذكره : فهناك عذوبة فى موسيقى بعض اللغات كالفرنسية ، يحب الانسان ان يسمعها ، ويأنس لها ويطرب ، ولو لم يدرك معناها . وهناك لغات غنية بمفرداتها ، واخرى فقيرة .. وناهيك (باللسان) الذى يضم بين دفتيه اكثر من مائة الف مادة .. ومخزونه الوفير هذا ارهاص بأنه يلبى اشواق الروح ومطالب الحياة والاحياء ، حين تدعو الحاجة ، وتلم الضرورة .

* * *

اللغـــة والفكر :

ثار جدل كبير بين العلماء والمفكرين ، بشأن قضية : توافق اللغة والفكر

---

(١) نظريات فى اللغة ص ٤٨

وتفاعلهما . فكان التساؤل : هل يوجد فكر مجرد بدون رموز لغوية أوان اللغة والفكر مظهرين لعملية (بسيكولوجية) واحدة ، كوجهى قطعة عملة ؟

والسؤال بوجه آخر : هل هناك ارتباط بين طبيعة نظام اللغة ورموزها من جهة ، وبين تفكير مجتمع هذه اللغة وفلسفة ومظاهر التفكير ، التى أنتجها وينتجها هذا المجتمع من جهة اخرى ؟

بعض العلماء يؤيد هذا الترابط ، ويؤيد التجارب والدراسات : بأن اللغة تسيطر على طريقة تفكير المجتمع ، وان سلوك الفرد والمجتمع معزو الى اللغة المتكلمة وطبيعتها .

وبعض العلماء ينقض ذلك وينفيه . فمسافة الخلف واسعة ، والتطرف كبير بين النفى والاثبات :

يرى سابير (Sapir) : ان اللغة هى التى تجعل مجتمعا ما يتصرف ويفكر بالطريقة التى يتصرف ويفكر فيها . وأن ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم الا من خلال لغته ، فالبشر واقعون تحت رحمة تلك اللغة المعينة ، التى اتخذوها وسيلة للتفاهم فى مجتمعهم . حقيقة الأمر أن العالم الحقيقى مبنى الى حد كبير على العادات اللغوية لمجتمع معين » (١) .

وفى موطن آخر يوضح (سابير) نظريته : بأن اللغة طريق ممهد ، أو اخدود كالأخاديد التى تراها على سطح اسطوانة ، تمهد وتحدد للابرة لتمر فيه ، لتردد الصوت .

فاللغة تسهل الفكر وتساعد على نموه ، ونمو الفكر ذاته يعود فيؤثر فى اللغة وتطورها ونموها . فالتفاعل بين اللغة والفكر أمر واقع (٢) .

ان ولادة فكرة ما يسبقها عادة نوع من التعبير اللغوى الواضح أو غير الواضح . ولكن هذه الفكرة المولودة جديدا لا يصبح لها كيان ذاتى ما لم تلبس رمزا لغويا ، أى ما لم تضمن الفكرة فى (كبسول) لغوى ، عندما نشعر أن الفكرة المولودة جديدا قد أصبحت ملكا لنا ، وأصبحت تشكل جزء من تفكيرنا .

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية ص ٢١٨

(٢) نظريات فى اللغة ص ٥٩

وكان (بنيامين وورف) اوضح واشد صراحة من أستاذه (سابير) : اذ جعل اللغة حاكمة تماما ، والمرء اسير لغته ، يقول : « ان الانسان اسير لغته ، وان اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار ، فنحن نقسم الطبيعة (العالم) بموجب الخطوط التى ترسمها لنا لغاتنا القومية » (١).

بينما يرى (الفرد كورزبسكى A. Korzybsky — ١٨٧٩ ــ ١٩٥٠) ، عكس النظرية السابقة : فلغة مجتمع معين لا تحدد الاطار لذلك المجتمع لان يرى العالم من خلال لغته . ويوضح ذلك بأن (الخريطة لا تمثل الرقعة الأرضية كلها) . أى أن اللغة لا تمثل كل ما يشمله هذا العالم من أشياء ، وما يحدث فيه من أحداث » .

وتأسيسا على الرأيين السابقين جعل العلماء طريقة التفكير عند العرب والفرنسيين استنتاجية : (Deductive) ، لأن الصـــفة فى لغتيهما تتبع الموصوف .

بينما تفكير الأمـــة الانجليـــزية تفكير استقرائى : (Inductive) ، لأن الموصوف عندهم يأتى بعد الصفة (١) .

وقيل ايضا : ان مجتمع اللغة التى لا تميز تراكيبها بين أحداث الجملة ، ومورفيماتها بدقة فى الاستعمال : مجتمع قدرى ، كمجتمع الهنود الحمر مثلا ، فلا ضابط له ولارابط ، وتفكيره ضحل ، وتعابيره بدائية محسوسة .

واى مجتمع لا تتوافر فى لغته بنيات الزمن ، وتتقاسمها مصطلحات التحديد المنطقى ، تتسم حياته بعدم احترام الزمن ، ولا يقيم للفكر والمنطق وزنا .

ولكن بعض علماء اللغة يردون هذا وذاك ، ويثبتون خطأ هذا القول : فقد ثبت أن ليس هناك لغات بدائية متخلفة ، ولغات عصرية متقدمة ، ففى مفردات كل لغة وتراكيبها ، ــ فى أى لغة ــ ما يغطى ويفى بمتطلبات وحاجيات هذا المجتمع ، ويتمشى مع ما يعوزه من أشياء : فقد ذكر طرفة ناقته وشئونها فى اكثر من اربعة آلاف لفظة فى مجتمع بدائى التفكير والبيئة فيه ضحلة . ويعرف (الاسكيمو) لصنوف الثلج والوانه الشىء الكثير ، ويعبر عن كل نوع

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية ص ٢١٩

(٢) أضواء على النظريات اللغوية ص ٢١٨ وما بعدها .

بلفظة تخصه . وللأرز فى (الفلبين) اكثر من عشرين لفظة .. وتراكيب كل لغة تعين مجتمعها على التعبير الصائب ، والفهم والافهام .

وبعض الكلام لايدخل فى نطاق الفكر ، ولا تتلبس به اللغة تلبسا واضحا وقويا . فقولك : — مثلا — نمت الليلة نوما هادئا . وقولك لزميلك : تفضل معنا . لا تحتاج سوى لمسة فكر خفيفة .

فالمعادلات الرياضية كانت موجودة بصورة ما فى الذهن ، قبل تلبسها برمز لغوى ، ولكنه بعد تلبسه بها وضحها ، وقننها ، وجعلها تقترب بسرعة من الفهم والأذهان عند ذويها .

فضلا عن أن المدلولات الاجتماعية تسبق فى الظهور المداليل اللغوية ، التى تعنونها .

هذا ما يترتب على الرايين السابقين ، (لسابير) وتلميذه (بنيامين) من ناحية ، ورأى (الفرد كورزبسكى) من ناحية اخرى فى سيطرة اللغة على الفكر ، أو عدم السيطرة . وذكرنا طرفا مما اعترض به على النظريتين .

وهناك رأى فلسفى لا يفصل بين الفكر واللغة ، لانهما نوعان من السلوك البشرى : اذ يعتبر (جون واتسون John Watson) واصحاب المدرسة السلوكية : التفكير نوعا من الكلام الداخلى ، والمنطوق على مستوى الحنجرة . و (سكنير Skinner) لا يفصل بين الفكر واللغة ، لانهما نوعان من السلوك البشرى على حد سواء (١) .

ونقد هذا الرأى : بأن اللغة نظام تجريدى يشارك فيه ابناء المجتمع الواحد ، بينما الكلام الفعلى واحد من مظاهر القدرة اللغوية الكاملة .

والذى نرتضيه من هذه الآراء :

— أن العلاقة متبادلة بين اللغة والفكر ، وكذلك بينها وبين الحضارة والأحداث التى تدور فى المجتمع : فهما يعتمدان على بعضهما الى حد كبير . ونحن لا نستطيع التفكير ابعد من قدرتنا اللغوية ، كما لا نستطيع أن ننطق بما لا نستطيع التفكير فيه .

— وأن التجارب التى أجريت ومازالت تجرى دلت على أن اللغة تسيطر سيطرة كاملة على اى مظهر من مظاهر الحضارة ، أو احتواء الفكر احتواء كاملا .

***

(١) المصدر السابق

مجتمع اللغة والطبقية :

اللغة ناظمة عقد اى مجتمع ، ودليل هويته ، ومرآة احداثهوشئونه . وهى لذلك خير ترجمان لكل ما يدور فى المجتمع : ان فى اعلاه او فى قاعه وتعكس الأحداث الاجتماعية ، وهوية النظم والتقاليد ، والثقافة والانتماء الحرفى ، وكذلك القيم والسلوك السائدة ، لكل الأسنان والأجناس التى يموج بها هذا المجتمع :

وتكشف الألقاب والنعوت جانبا كبيرا مما سلف ، اذ عندما تسمع : حضرة صاحب الجلالة ، والسلطان ، والعظمة ، والسمو ، والفضيلة ، والغبطة ، والمعالى ، والسيد ، والباشا ، والبك ، والأفندى ، والأستاذ ، والدكتور ، والمهندس ، والأسطى ...

وعندما تتصدر الرسائل أو تنتهى بمثل هذه العبارات :

يتفضل سيدى ، ومولاى ، وأرجو ان تتفضلوا ... تدرك على الفور ان اللغة كشفت عن جانب من هوية المجتمع وبعض نظامة ، وطبقاته المتعايشة ، ونظامه السياسى ...

وبين شاسع بين هذا ، وبين ما عرفته العربية فى الصدر الاسلامى ، حين كان يخاطب الأعرابى النبى صلى الله عليه وسلم ، قائلا : يامحمد : اعطنى من مال الله .

وللمجتمع الفه وعاداته فى احاديثه وتعابيره التى تخضع لمعايير الذوق والأدب : فيكنى عما يسىء ويزعج ، ويورى عما ينفر ، ويغلف بمعسول القول ما يؤلم ، ويستر بأسلوب الحكيم ما يؤذى المشاعر والاحساسيس ، وما يستقبح ويستهجن ذكره :

وللعربية قصب السبق فى هذا المضمار :

ففى حديث السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ : « ما رأيت منه ولا رأى منى » والرسول يوصى بالا يقول احد : عبدى وامتى ، ولكن فتاى ، وفتاتى . والقرآن الكريم يقول فى ادب عال : « **نساؤكم حرث لكم** » (البقرة : ٢٢٣) ، « **فاعتزلوا النساء فى المحيض** » ، (البقرة : ٢٢٢) « **واهجروهن فى المضاجع** » (النساء : ٣٤)، « **فصيام شهرين متتابعين من قبل ان يتماسا** » (المجادلة : ٤).

ويقول عمر بن أبى ربيعة فى مواسم تغزله :

* وكم من مالىء عينيه من شىء غيره *

ويقول فقهاؤنا : ينقض الوضوء من أحد السبيلين ..

وحتى اطباؤنا لا يذكرون الفاظ (السل) ، و (السرطان) ، لمن هو مريض بهما ..

ونحن لا نقول : مات فلان ، ولكن نقول : انتقل الى رحمة الله ، واراحه الله ، واعطاك عمره ..

واحيانا نلوذ بكلمة أجنبية : مثل (التواليت) ، أو مجاورة (كالحمام) و (اكس) ، لما دل عليها ..

وحتى قلنا للأعمى : بصير ، وللمريض : سليم ، وللأعور ، ممتع باحدى عينيه .

وذكرنا الشيطان ، ببسم الله الرحمن الرحيم ، لئلا يخرج لنا ، والشر بره وبعيد عن بيتنا .

كل ذلك من باب الأدب والاحتشام والحياء ، ومراعاة الذوق العام ، او مراعاة لأعراف ومعتقدات ، واسباب تعلم او تخفى .

وظاهرة الكلام المحظور اجتماعيا (Taboo)، محكومة اجتماعيا ، وقد يكون قانونيا فى البلاد المنعزلة والمحافظة ، والتى لا تقبل اطلاقا بخدش الحياء العام ، كما فى بعض البلاد الاسلامية ، وفى المجتمعات الانجليزية .

بينما يكون الحبل على الغارب فى البلاد المفتوحة ، للأدب الصريح والمكشوف ، فلا يستحى اهلها فى التعبير عن السوآت والعورات ، وتسمية المستور باسمه الصريح ، وتداوله فى كتب ومجلات سيارة . كاللغة اللاتينية قديما ، وبعض مجتمعات اوروبا حديثا ، وخاصة عند المنحرفين كالهيبيين ومن على شاكلتهم دونما حياء ولا خجل ، وقد يكون ذلك بسبب التحدى للمجتمع ، او الشذوذ ، او التمرد على السلطة والنظام القائم .

كما لاحظ علماء اللغة ان من الألفاظ ما يحظر على النساء ذكرها ، ومنها ما يكثر على لسانهن اكثر مما يكون على لسان الرجال ، وحبذا لو درس ما يدور فى مجتمعهن كاملا ، ليظهر الفرق جليا .

فالمراة الانجليزية كانت لا تتحدث عن رجل المائدة المكسورة ، والنساء عموما تكثر من ذكر الالفاظ العاطفية ، والتمييز الدقيق بين انواع الالوان ، بما لايعرفه معظم الرجال .

وتحابى اللغة احيانا جنس الرجال ، فتغضب جماعات النســـاء ، فالتغليب لجنس الرجال شائع فى العربية وغير العربية .

وذكر الدكتـــــور نايف خـــرما ، أن الانجليزيـــة حـــين تقـــول : (He is professional) تعنى أن الرجل محترما وينتمى الى احـــدى المهن المرموقة . بينما اذا قالت الانجليزية : (She is Professional) فيصف ذلك المراة بأنها مومس . وكلمة (Master) تعنى بالنسبة للرجل (سيد) . بينما مؤنثها (Mistress) تعنى أن المراة موسومة بوصف سوء . وفى الانجليزية اكثر من مائة كلمة بدلا من كلمة حيض .

واحيانا تسقط اللفظة اجتماعيا ، واصلها لا بأس به .. فلا تذكر الا فى وسط مثقف : كحديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « اخوانكم خولكم اطعموهم مما تطعمون ، واكسوهم ... » والمعنى عبيدكم خدمكم ، بينما هم فى الحقيقة اخوان لكم ، فأنزلوهم المنزلة الاسلامية الانسانية .

***

الجهود الأدبية لصيانة اللغة واثرائها :

كل امة لها اسهام فى الحضارة الانسانية بشىء ، ولها ماضيها التليد ، وحاضرها المشرف ، ومستقبلها المرجى .. تحافظ على لغتها ، حفاظها على مقوم رئيسى من مقومات حياتها ووجودها .

والمستعمر قبل أن ينال ثروات الشعوب ومقدراتها ويسيطر عليها ، يوهن من عرى لغتها ، ويطاردها حتى تمسى فى زوايا النسيان .. لأنـــه يدرك أن اللغة مناط وحدتهم ، وناظمة عقدهم .

ولولا جهـــود الشيخ عبد الحميد بن بـــاديس الجزائرى واعوانه فى الجزائر ابان الاستعمار الفرنسى ، لكانت العربية فى خبر كان .

وعندما نتأمل المنجزات الحضارية فى تاريخ الشعوب .. نجد أن مفخرة من مفاخرها هى ابجدية الكتابة .

وقد كان قصب السبق فى هذا الجانب للحضارة السامية ، ثم نقلتها عنها الحضارة الفينيقية الى اليونانية والرومانية بعد ذلك .

وتدرجت الكتابة بالرسم المشخص للشىء الى الرمز عنه بشىء منه ، أو بخطوط متعارف عليها ، كما تحكيه لنا قصة الكتابة الأبجدية : فالمصرية القديمة رسمت الصقر بصورته ، ورمزت الهيروغليفية للشمس بدائرة فى وسطها نقطة . ورسم الفينيقيون للدلالة على الثور راس الهمزة . واستعانت الصينية بأكثر من أربعين خطا أساسيا ، توضحها خطط صغيرة فى ابجديتها .

وترجمت الحروف عن الأحداث — كما فى مقدمة الشيخ العلايلى — : فالسين والميم والكاف تشير الى السمك بمعنى : كف الماء القوى . والجمل والشجر ، لأى شىء عال ضخم كالجبل ...

ومن الأبجدية الفينيقية اشتقت الاغريقية ، ومنها اخذت اللاتينية ، ومنها كانت حروف الأوربيات الحديثة . ومن الفينيقية ايضا : اشتق العبرى القديم ، والآرامى ، والتدمرى ، والسريانى ، والنبطى ، ومن النبطى جاء العربية .

وكانت الكتابة نعمة جلى ، لأن الاعتماد على مخزون الذاكرة كثيرا ما يخون ، أو يتداخل فيحدث اللبس والخلط . فأصبحت لغة الكتابة ، وسيلة القيد ، والحفظ للتراث وعدم ضياعه ، وتولى الحكومات جهدها لتعليم اللغة المحلية ، وحفظها وصيانتها وتنقيتها مما يشوبها ويعلق بها . ويأتى ذكرها فى دساتير البلاد فى المرتبة الثانية ان لم تكن الأولى ، وتعكف المدارس والمعاهد والجامعات على تعليمها ، والتدريس بها ، وتلتزمها وسائل الاعلام المختلفة فى بث برامجها ، ونشر بضاعتها . وقد أمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — زيد بن ثابت بتعلم لغة أجنبية ، وجعل فداء أسرى بدر بتعليمهم أبناء المسلمين الكتابة !

وكلما تقدمت وسائل الاتصال والتكنولوجيا ، كلما أعان ذلك على الثقافة، ووجدنا حركة التجديد فى اللغة فى تأثر الأدباء والكتاب باللغات الأجنبية ، وترجمة المفردات الأجنبية والتراكيب والأفكار .

وفى احياء المفردات المهجورة من بطون المعاجم القديمة رغبة فى التجديد ، ونقل المصطلحات الأجنبية .

والنشاط فى التاليف والترجمة .

والحث على التاليف اللغوى للأبحاث اللغوية ونشرها واشاعتها ..

وانشاء المجامع اللغوية للحفاظ على اللغة القومية وتنميتها ، وترويض الدخيل ، وانتقاء وصقل الوافد ، وايجاد البديل ..

وكل تلك-محاولات تطيل أجل بقاء اللغة ، ولكن سنة التطور والارتقاء والتغيير تنال من اللغة ، برغم كل الاحتياطات والسياجات ، سنة الأحداث والأيام فى اللغات .

* * *